

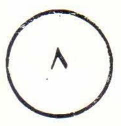
نحـــو طلائع إسلامية واعيـة

سيّد العظماء ﷺ

ميشيل هارت



الكلمة الطيبة صدقة



سيّد العظماء ﷺ

ميشيل هارت



بسم الله الرحمن الرحيم

سيد العظمـــاء

من الكتب الهامة التى ظهرت فى أمريكا كتاب اسمه (المائة).. والكتاب مجلد ضخم يقع فى ستمائة صفحة تقريباً ، ويحاول الكتاب ترتيب أهم مائة شخصية أثرت فى تاريخ الإنسانية..

ان أحداً لا يكره النفوذ ، بل إن الناس يسعون إليه ، وكل واحد من هؤلاء المائة كان يملك نفوذا هائلا ، وكان يحرك مصائر الملايين والبلايين ، وكان يتحكم فى صعود الحضارات أو هبوطها ، كما كان كل واحد من هؤلاء المائة يملك القدرة على تحويل مجرى التاريخ .. مؤلف الكتاب هو الدكتور ميشيل هارت ، وهو أصلا استاذ فى الرياضة والطبيعة والفلك ، وقد عمل فى مشروع غزو الفضاء ، ولا علاقة له بالتاريخ أو فلسفته أو الأديان المقارنة .

من تظنه وضع على رأس المائة الذين أثروا فى تاريخ العالم ؟

لقد قدم الدكتور ميشيل هارت مفاجأة .. لم يختر المسيح ولم يختر كارل ماركس... وإنما اختار محمدا .. نبى الاسلام .. ﷺ الثانى بعده هو اسحق نيوتن .. الثالث بعده هو السيد المسيح .. الرابع هو بوذا والخامس هو كونفشيوس .

مما يلفت النظر ان هذا العالم الأمريكى قد اختار عمر بن الخطاب ليكون الشخص رقم ٥٠ فى عدد المائة الذين اعتبرهم مسئولين عن تحول البشرية ..

قال النقاد عن الكتاب أنه يتحداك ويقنعك ، وحتى لو رفضت أن تقتنع فإن ما يقدمه الكتاب سوف يستولي على عقلك فى نفس الوقت الذى يمتعك فيه .. والمتعة هنا هى متعة تحليلية يقدمها رجل عالم فى الفلك والرياضة ، وله معاييره التى تختلف عن معايير أساتذة التاريخ .. وينبهنا المؤلف فى بداية كتابه الى أنه لا يقصر الأهمية على معنى العظمة .. فكتابه عن الأهمية .. بمعنى التأثير الحقيقى على ادارة عجلة التاريخ ... والقدرة الفعلية على تحويل مجراه ..

يحكى فولتير فى كتابه [رسائل عن الانجليز] أنه خلال إقامته فى انجلترا سنة ١٧٢٦ قابل مجموعة من المثقفين الذين طرحوا سؤالا يقول من كان أعظم الناس .. قيصر .. الاسكندر الأكبر .. تاليران .. أو كروموبل .. وقرر أحد المثقفين أن أسحق نيوتن هو أعظم الجميع بلا أستثناء .

فولتير فى تحليله يري أننا بفضل نيوتن صرنا نحكم عقولنا بقوانين الحقيقة ولا نذلها بالعنف أو نلفق لها الأكاذيب والدجل .. وهذا معيار العظمة عند فولتير .

ما هو معيار العظمة ومعيار الأهمية عند المؤلف الأمريكى ، وعلى أى أساس اختار العالم الأمريكى محمداً النبى العربي ليكون الأول ؟ ..

يعتبر الكاتب الأمريكي ميشيل هارت أن محمداً هو الوحيد صاحب النفوذ الأعظم على التاريخ الإنساني .

ويفرد الكاتب في كتابه [المائة] .. سبع صفحات عن رسول الله ﷺ ، من بين الصفحات السبع صفحتان تحتلهما خريطة للمد الإسلامي ، ونصف صفحة تحتلها لوحة لرسام تخيل جيش المسلمين وهو يغزو تحت علم الله ، وهذا الفصل الذي يعطيه الكاتب عنوان [محمد] .. هو أطول فصول الكتاب ، فليست هناك شخصية تزيد عن ست صفحات ، ومعظم الصفحات عن الشخصيات تحتلها الرسوم والصور ، والكلمات التي تحدث فيها عن الرسول لا تزيد عن ٢٥٠٠ كلمة ، واسلوب الكاتب مركز جداً ، وهو يستند إلى معلومات دقيقة ، والاحساس الذي يخرج به القارىء أن الكاتب الأمريكي قرأ بعمق آلاف الصفحات وفهمها جيدا قبل أن يكتب ...

وعقل الكاتب من نوع غريب ، وربما كانت غرابته هي مصدر قوته في نفس الوقت ، فالمؤلف عالم في الرياضة والطبيعة والفلك ، وهذه العلوم ليس فيها لف ولا دوران ، كما أنها علوم ليس فيها تعبير أو إنشاء ، فأنت لا تستطيع مثلا أن تحل مسألة هندسية بالتغزل في جمال المثلث أو بوصف دوران الدائرة .

نحن أمام علوم من لون خاص ، وسر لونها الخاص أنها تحقق ما لا يمكن النفاذ إليها إلا عن طريق مفاتيحها الصحيحة .

ولقد قرأت عن الرسول ﷺ لمؤلفين عرب ومؤلفين من غير العرب ، وقرأت عنه لمؤلفين مسلمين ومؤلفين غير مسلمين ، وقرأت

عنه لمن يحبه ولمن يكرهه ويكيد له ، فلم أر مؤلفا فى إيجاز ميشيل هارت ، إنه يستعرض قصة حياة الرسول وقصة حياة الدعوة فى صفحة ونصف ، ويفرد ما يقرب من ثلاث صفحات ونصف لتحليل سر اختياره لمحمد ليحتل المركز الأول فى التأثير على عجلة التاريخ والمؤلف ليس مسلما من أتباع محمد ليقال أنه جامله واختاره ليكون أعظم المؤثرين فى التاريخ الانسانى ، على العكس من ذلك ، المؤلف مسيحى من اتباع عيسى ، ولأن ميشيل هارت عالم فى الطبيعة والفلك يسيطر عليه حياد علمى من لون غريب ، ويسيطر عليه منطق العلماء فى التحليل والتركيب ، وأى كاتب عربى مثلا لا يستطيع أن يقارن محمدا بعيسى ، ويخرج من مقارنته بأن احدهما كان له تأثير أكبر من الآخر على التاريخ ، ولكن ميشيل هارت يفعل ذلك دون خشية ، وأى كاتب عربى يتحرج أن يقارن بين حروب الإسلام وحروب المغول ، ولكن ميشيل هارت يفعل ذلك ببساطة دون حرج .. وينتهى إلى تفضيل حروب الإسلام على أى حروب أخرى فى التاريخ ...

ولو سمح لى القارىء فسوف أترجم له ما قاله ميشيل هارت عن الرسول ، وسوف أسمح لنفسى بالتعليق كلما رأيت الأمر يوجب التعليق ..

لماذا .. الأول ؟

يقرر المؤلف الأمريكى ميشيل هارت فى كتابه عن [المائة الأكثر نفوذا فى التاريخ الانسانى] ، أنه اختار ذوى النفوذ بالمعنى الكامل ، ولذلك لم يقنع بالشهرة ، أو الوضع الإنسانى ، أو ذيوع الذكر ، أو الموهبة ، أو نبل الشخصية فقط ، وإنما كان يبحث عن النفوذ بمعنى : القدرة على تغيير مجرى التاريخ والتأثير فى البشر..

يقول فى مقدمة كتابه : عندما أبحث عن ترتيب الأهمية لشخص ما ، فإننى أعطى اعتبارا خاصة للحركة التاريخية التى كانت ثمرة لجهده ، وعموما لا تقع حركات التاريخ نتيجة جهد فردى ، ومن هنا تبرز أهمية النفوذ الذى يملكه شخص ما ، ويستطيع من خلاله أن يقنع الآلاف أو الملايين بإحداث تغيير فى الحضارة أو التاريخ .. ولعل المثال المثير على ذلك ترتيبى لمحمد ﷺ ، ووضعه فوق عيسى ، عليه السلام .. فأنا مقتنع بأن محمداً كان له نفوذ فى تكوين العقيدة الإسلامية ، أكثر من نفوذ عيسى فى تكوين العقيدة المسيحية ، وليس معنى هذا أننى أفضل محمداً على عيسى ..

ويقول المؤلف فى بداية فصله الأول وعنوانه : [محمد ٥٧٠ — ٦٣٢] : إن اختيارى لمحمد ليكون الأول بين ذوى النفوذ المؤثرين فى العالم قد يدهش بعض القراء ، ويصير مثار تساؤلات من البقية ، ولكنه هو الوحيد فى التاريخ الذى كان امتيازه متكافئا على المستوى الدينى والدنيوى .. وبأصول متواضعة ، أسس محمد ديانة من ديانات العالم العظيمة ، وأصبح زعيما سياسيا ، ورغم مرور أكثر من ١٣ قرناً على وفاته ، ما زال نفوذه الدينى والسياسى عميقاً ومستمراً ..

ومعظم شخصيات هذا الكتاب [يقصد بقية الـ ٩٩] ، كانت عندهم فرصة الميلاد والنشوء فى مراكز للحضارة الانسانية ، ولكن محمداً ولد سنة ٥٧٠ فى مدينة مكة ، التى تقع فى الجزيرة العربية ، وكانت الجزيرة العربية يومئذ منطقة متخلفة من مناطق العالم ، تبعد كل البعد عن مراكز التجارة والفن والتعليم ، اصابه اليتم فى السادسة ، وتزوج فى الخامسة والعشرين من أرملة ثرية ، واقترب من عامه الأربعين ، وكان العرب فى هذا الوقت وثنيين ، يؤمنون بآلهة متعددة ، وفى سن الأربعين آمن محمد بأن الله الواحد الذى يحكم الكون يوحى إليه ، وقد اختاره لينشر الإيمان الحقيقى .. وعلى امتداد ثلاث سنوات ، دعا محمد أصدقاءه المخلصين سراً الى الإسلام ، وفى حوالى سنة ٦١٣ ، بدأ دعوته علانية ، واعتبرت سلطات مكة أن وجوده يمثل خطراً عليها ، ولأسباب تتعلق بالأمن ، خرج من مكة

الى المدينة [وهى مدينة تبعد ٢٠٠ ميل شمالى مكة] ، وهناك صار له مركز سياسى مرموق .. وهذا الخروج الذى يسمونه [الهجرة] ، كان نقطة تحول فى حياة الرسول وحياة الدعوة .

حروب الإسلام

يقول ميشيل هارت فى فصله الأول عن [محمد] .. كانت الهجرة .. نقطة تحول فى حياة الرسول ، فقد كان اتباعه قلائل فى مكة ، وزاد أتباعه فى المدينة وصار له نفوذ الحاكم المطلق الفاضل ، وخلال السنوات التالية ، وفى نفس الوقت الذى زاد فيه اتباع الدين الجديد ، جرت عدة معارك بين المدينة ومكة ، وانتهت هذه الحروب سنة ٦٣٠ بانتصار محمد وعودته الى مكة فاتحا ، وقد بقيت سنتان ونصف فى حياته بعد ذلك ، وشهدت هذه الفترة دخولا سريعا للقبائل العربية فى الدين الجديد ، وعندما مات محمد سنة ٦٣٢ ، كان هو الحاكم المؤثر فى الجزيرة العربية كلها .

والمعروف عن القبائل العربية شهرتهم كمحاربين أشداء ، ولكن عددهم كان قليلا ، وكانوا مطعونين بالانقسام ممزقين من الحروب الداخلية ، ولم تكن لديهم أى إمكانية للتصدى لجيوش الممالك الزراعية المستقرة فى الشمال .. ولكنهم بعد اتحادهم تحت راية محمد ، و للمرة الأولى فى التاريخ ، وبسبب توحدهم فى الإيمان بالله الواحد .. بدأت الجيوش العربية تشق طريقها فى سلسلة من الغزوات التى تثير الدهشة بشكل لا تثيره أى غزوات أخرى فى التاريخ .

ففى الشمال الشرقى تستقر امبراطورية الفرس ، وفى الشمال الغربى ترقد الدولة البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولم يكن يدور بخاطر أحد أن العرب يمكن أن يواجهوا أيا من هاتين الامبراطوريتين ، ولكن الذي حدث أن الجيوش العربية بدأت غزو هاتين الدولتين ، وبعد فتح فلسطين وسوريا ، فتح مصر سنة ٦٤٢ ، وسحقت الجيوش الفارسية فى معركة القادسية سنة ٦٣٧ ونهاوند سنة ٦٤٢ .. وهذه الحروب الجبارة التى تمت تحت زعامة أصدقاء محمد وخليفته عمر بن الخطاب لم تشكل نهاية التقدم العربى ، ففى سنة ٧١١ اجتاحت الجيوش العربية شمال أفريقيا ووصلت الى المحيط الأطلسى ، ثم استدارت شمالا ، وعبرت جبل طارق وهددت مملكة أسبانيا ..

وبدا واضحا ان العرب يمكن أن يكتسحوا أوربا المسيحية ، ثم حدث سنة ٧٣٢ فى معركة تور ، أن أوقف تقدم الجيش العربى فى فرنسا ، وهزم من الفرنجة ، كما دخل الساحل الشمالى لأفريقيا فى الاسلام ، ومن المدهش ورغم كل شىء ، نجحت الجيوش العربية ، بالهام من كلمات الرسول ، فى نحت امبراطورية تمتد من الهند إلى المحيط الأطلسى ، وهى أضخم امبراطورية شهدها التاريخ الإنسانى .

ومع كل بقعة أرض احتلتها الجيوش العربية ، كان الدين الجديد يكسب أتباعا جددا من البشر ..

ما الذى بقى حتى اليوم من هذه الامبراطورية ؟

هذا هو السؤال الذى يطرحه الكاتب الامريكى :

الدليل على نفوذه

يتساءل الكاتب الامريكى ميشيل هارت عن غزوات الاسلام للدول المسيحية أو الوثنية ، هل بقيت على اسلامها بعد رحيل الجيوش ومرور القرون أم لا ؟

ويكتشف من سياق الاجابة على سؤاله سر عظمة الرسول أو سر نفوذه ، لقد بقيت حضارتان من أقدم حضارات العالم تحت مظلة الاسلام .. هما مصر الاسلام فلم يصبغ هذه الدول بلون العقيدة الواحدة ، وانما صبغها بالصبغة العربية ايضا ، ودخل الملايين من أهل الحضارات القديمة فى ديانة العرب ، ولما كان عدد المسلمين نصف عدد المسيحيين فى العالم ، فمن الغريب أن يعطى نبى الاسلام محمد رتبة أعلى من رتبة عيسى ..

يتساءل ميشيل هارت هذا التساؤل فى كتابه ، ويسوق سببين لاختياره :

السبب الأول أن الدور الذى لعبه محمد فى تطور العقيدة الإسلامية أضخم [فى رأيه] من الدور الذى لعبه عيسى فى تطور العقيدة المسيحية .. فعلى حين انفرد رسول الإسلام بتطوير الإسلام وحده ، وضع عيسى أسس القواعد الأخلاقية المسيحية ، وقام القديس بولص بتطوير العقيدة المسيحية وكتابة الانجيل ، وعلى

المستوى العقائدى البحت ، يفترض الكاتب الأمريكى ان محمدا وعيسى يتساويان فى النفوذ الدينى ، ولكن رسول الإسلام بعكس عيسى كان زعيما دنيويا الى جوار كونه زعيما دينيا ، وبوصفه المحرك الأول لغزوات الإسلام ، يمكن القول أنه أكثر الزعماء السياسيين نفوذا فى العالم .

وهناك أحداث تاريخية كان لابد أن تقع حتى لو لم يوجد الزعيم الذي وجهها ، مثال ذلك مستعمرات أمريكا الجنوبية ، كان لابد أن تحصل على استقلالها من أسبانيا حتى لو لم يعش سيمون بولفار .. ولكن هذا المنطق لا يمكن تطبيقه على غزوات الإسلام ، فلم يكن ممكنا أن تقوم هذه الغزوات بغير محمد ..

والغزوات الوحيدة التى يمكن مقارنتها بحروب الإسلام هى غزوات المغول في القرن الثالث عشر ، لقد نشأت هذه الغزوات بقيادة ، وامتدت أكثر من امتداد الغزو العربى ، ولكنها لم تصمد للزمن كحروب الاسلام ، وإنما انحسرت بعد سنوات وعادت مملكة المغول الى التقلص ، وتختلف الغزوات العربية فى تأثيرها تماما ، فليست هناك أرض قد تأثرت بقيم القرآن كالأرض العربية ، وتتحد الدول العربية — رغم كل خلافاتها وتناقضاتها الظاهرة — فى الايمان بالقرآن ، وفى وجود لغة عربية واحدة تربط بينها ، كما تتحد فى التاريخ والثقافة ، ورغم مرور ١٣ قرنا من الزمان أو أكثر ، ما زالت حروب محمد تؤثر فى العالم ، وبقاء الدول العربية ومواقفها المتقاربة دليل على ذلك .

رســـول الله

يرى المؤلف الأمريكي ميشيل هارت أن محمد بن عبد الله الرسول العربي الذى ولد فى مكة ، كان أعظم البشر نفوذا وتأثيرا فى التاريخ الانسانى ، وهو يسوق أسبابه الوجيهة التي تضع اختياره على رأس القائمة البشرية .. ويعرف المسلمون عن رسولهم أسبابا أخرى تجعله يحتل هذا المقام .. يحدثنا القرآن الكريم أن هناك خمسة من الرسل هم أولو العزم الكبار وهؤلاء هم الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا ، وهم بترتيب بعثهم إلى الناس سادتنا : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. عليهم الصلاة والسلام :

أما نوح فهو صاحب الطوفان ، وابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله وعيسى كلمة الله ومحمدهو رحمة الله ..

كانت معجزة ابراهيم تحول النار حين ألقى فيها إلى برد وسلام ، وكانت معجزات موسى هى شق البحر والعصا واليد ، وكانت معجزات عيسى هى إحياء الموتى وشفاء ما لا يشفى من الأمراض .. ونلاحظ أن هذه المعجزات كلها مادية ومؤقتة بزمان محدد ، هو زمن النبى الذى وقعت فى عصره ، ولهذا اختفت هذه المعجزات بموت من مات من هؤلاء الأنبياء أو برفعهم إلى الله ..

أما معجزة الرسول فلم تزل فى أيدينا كل يوم .. القرآن الكريم .. ونلاحظ أن معجزة الرسول كانت كتابا .. كما نرصد أن أول كلمة نزلت من القرآن كانت أقرأ ... وهذا كله يعنى أن معجزة النبى ﷺ كانت تتصل بالفكر .. كانت افتتاحاً لعصر النضج العقلى وإيذاناً ببدايته . ولهذا الأمر دلالته ..

وقد لاحظ المؤلف الأمريكى ميشيل هارت اختلاف غزوات المغول ، وادرك أن سيوف المغول كانت تبرق فى الظلام لمجرد الغزو ، أما سيوف المسلمين فكانت كمشرط الجراح تبرق بفكرة الشفاء والخلاص من الألم .. وهذا هو السر فى ذهاب فتوح المغول وبقاء الفتوحات الإسلامية .. ورغم موت الرسول ـ ﷺ منذ ١٤ قرنا ، فإن تأثيره ما زال حيا وموجوداً ويمارس نفوذه ..

وعلى المستوى الشكلى البحت ما زال بعض المسلمين يطلقون لحاهم ويقصون شواربهم اقتداء برسول الله فى مظهره .

وعلى المستوى الموضوعي يصلى جميع المسلمين كما علمهم الرسول ، ويتعبدون كما أمرهم ، ويحاولون التصرف كما كان يتصرف ، مدركين أنه هو المثل الأعلى للإنسان ، عارفين أنه شمس الكمالات البشرية ..

والحقيقة أن رسول الله ﷺ كان سيد البشر فى الكمال الإنسانى لا ينازعه منازع .. وهناك أسباب كثيرة لذلك ..

سيد العظماء

يحلو لكثير من الناس أن يسأل :

هل كان رسول الله سيد البشر فى الكمال الإنسانى .. أم أنه صار سيد البشر حين اختارة الله لنشر الإسلام . والسؤال يحاول أن يعرف هل كان فضل الرسول سببا لاختيارة أم نتيجة لهذا الاختيار ..

الجواب الصحيح فى تصورى أن فضل الرسول وسيادته على البشر كانا سببا ونتيجة معا .. وفى الرق والتركيب لا تتوقع إجابة ساذجة على سؤال بسيط .

أقرب الى المنطق أن تجىء الاجابة معقدة .

لو لم يكن رسول الله هو سيد البشر ، لما اختير لحمل رسالة نهائية ينزل الستار بعدها على الأنبياء ويتوقف وحى السماء للأرض .. والله هو الكمال المطلق بلا تحديد ولا تصور .. فإذا اختار الله سبحانه انصرفت مشيئته إلى الكمال .. والأصل فى الاختيار الانسانى أنه يبحث فى الرسول عن صفات جوهرية كالأمانة والفضل والقدوة والشرف وذلك لضمان توصيل الرسالة كما هى .. واختيار الله الدقة المطلقة ويختلف تماما عن الانسان الذى يحكم بالظن والتصور ، إذ يختار الله تعالى وهو يعلم حقيقة الضمائر ومزاج القلوب ومعادن النفوس .

نفهم من هذا أن جميع أنبياء الله كانوا أشرف الخلق قلبا وقالبا ، وكانوا أفضل معادن بشرية فى الأرض ..

وهذا هو الأصل فيهم قبل اختيارهم للرسالة ..

فإذا وقع عليهم اختيار الله عز وجل ، أضاءوا بشرف يستمدونه من جلال الله ذاته .. واضاءوا بشرف مهمتهم الجديدة فى تصحيح فكرة الانسان عن الخالق ..

وهكذا يزيد قدر النبى — أى نبى — بعد البعثة إلى الناس وتكليفه بالرسالة .. يزيد قدره شرفا ويبدأ الصعود من القمة التى كان فيها الى قمم أخرى لا نعلم عنها نحن التوابين المذنبين شيئا .

وكل أنبياء الله كانوا قمما شامخة فى الكرامة الانسانية واحترام الانسان .. وكان رسول الله ﷺ هو آخر البناء الشامخ ، ولهذا جاء فضله أعلى فضل يطيقه تركيب الانسان المدهش .

تأمل عظمة الرسول من أى زاوية تحب .. ابدأ دراسته من أى مستوى تختاره .. لن تجد غير بيت الشعر القائل :

ياسماء ما طاولتها سماء ..